"المصطلح بين الدال والمدلول وعلاقته بالانسجام في النص القرآني"

« The Term Between The Signifier And The Signified And Its Relationship to Harmony in The Quranic Text »

الأستاذ:شعيب زياد

جامعة البليدة 2 لونيسي علي

ملخص:

تلخصت هذه الدراسة في محاولة بيان وجوب فهم اللغة العربية للوصول إلى فهم النص القرآني لبلوغ فهم مراد الله سبحانه وتعالى، وكم من شبهات والتباسات فكت بالعودة إلى اللسان العربي الفصيح،كما بنيت دراسة دلالة المصطلح لبيان النقاط عند المفسرين وفهمهم لكلام الشارع جل وعلا،مع تبيان التماسك والاتساق والانسجام داخل النص القرآني باختلاف المستويات الصوتية والتركيبة والجمالية، وهذا يعد كمحاولة جادة لإبراز الوحدة النسقية.

الكلمات المفتاحية: النص – الدلالة– المصطلح– الدال والمدلول– الانسجام.

Abstract :

This study is summarized in an attempt to demonstrate that the Arabic language must be understood in order to reach an understanding of the Quranic text in order to reach an understanding of the purpose of God Almighty, and how many suspicions and contradictions have come to return to the Arabic language, as well as the study of the meaning of the term to explain the points of the interpreters and their understanding of the words of the street, Cohesion, consistency and harmony within the text of the Qoran different levels of vocal, compositional and aesthetic, and this is a serious attempt to highlight the unity of consistency.

Key Words: Text – Significance - The term - Signifier And The Signified – Harmony

تعد اللغة العربية ركنا أساسيا من أركان وحدة أمتنا العربية الإسلامية لقوله تعالى:« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا»[1]، فقد جاء في تفسير ابن كثير [فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ] يعني القرآن، [بِلِسَانِكَ]: أي يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل.

فللغة العربية أهمية كبيرة كونها لغة القرآن وهو ما جعل المعاجم العربية تحضى باهتمام على مر العصور والحضارات، والذي جعل كثيرا من علماء اللغة يتناولونها في دراساتهم و أبحاثهم.

فالنص القرآني عد ووصف بالسهل الممتنع لانسجام ترابط ألفاظه وتراكيبه، ليكون ذلك تحديا للعرب، ولعدم قدرتهم على الإتيان بمثله، إذ تعبر ألفاظه عن معان أضحت خادمة لكل عصر.

فالقرآن الكريم رسالة الحياة كأشمل ما تكون الحياة وأعمق ما تكون الحياة، وأظهر ما تكون الحياة.[2]

فإن المتأمل لآيات القرآن الكريم ونصوصه يجد لها وقع كبير على قريش العرب، فمصدق ومكذب، فقريش التي عدت لهجتها هي السائدة في جميع مناحي الحياة العربية، الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية والدينية، وجدت في القرآن الكريم ما سفه أحلامها وعاب آلهتها ، وساوى بين شرفائها، فها هو جلال الدين السيوطي صنف ألفاظ القرآن الكريم قائلا عنها بأنها: "هي لب كلام العرب، زبدته، وواسطته، وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامها، وحِكَمِهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم".[3]

في معنى الدلالة:

لو تتبعنا معنى الدلالة في اللغة والاصطلاح لوجدناها قد اشتقت من لفظة: دلّ وما صيغ منه في معاجم اللغة ، لألفينا دلالته تبتعد عن المجال الذي رسمه القرآن الكريم، فيورد ابن منظور قوله حول معاني لفظ دلّ فيقول: "الدليل ما يستدل به، والدليل الدال، وقد دلّه على الطريق يدله دلالة بفتح الدال أو كسرها أو ضمها والفتح أعلى وأنشد أبو عبيد:

إني أمرؤ بالطرق ذو دلالات والدليل والدليلي الذي يدّلك[4]

إن ابن منظور رسم الإطار المعجمي للفظ "دلّ" محددا المعنى الحقيقي الذي ينحصر في دلالة الإرشاد أو العلم بالطريق الذي يدل الناس ويهديهم، وهذا التصور للدلالة لا يختلف عن التصور الحديث مما يعني أن الدلالة تستوحي معناها من أساليب الخطاب اللغوي القديم، وإلى المعنى ذاته أشار الفيروز آبادي محددا الوضع اللغوي للفظ "دلّ" فيقول: والدالة ما دلّ به على حميمك، ودلّه عليه دلالة: سدده إليه وقد دلّت تدلّ والدال كالهادي".

لقد شهد أئمة العربية الأجلاء حسبنا في هذا القول أن نذكر الإمام أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502 هـ) أن ألفاظ القرآن الكريم تمثل ذروة ما وصل إليه الخطاب اللغوي من فصاحة اللغة وجودة التعبير والدلالة.

إن الجهود اللغوية في التراث العربي لأسلافنا الباحثين تلك الأبحاث التي اضطلع بها اللغويون القدامى من الهنود واليونان واللاتينيين علماء العصر الوسيط وعصر النهضة الأوروبية، فتحت كلها نافذة كبيرة للدرس اللغوي الحديث وأرست قواعد هامة في البحث الألسني والدلالي، استفاد منها علماء اللغة المحدثون بحيث سعوا إلى تشكيل هذا التراكم اللغوي المعرفي في نمط علمي يستند إلى مناهج وأصول ومعايير، وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر تقدّم العالم الفرنسي ميشال بريال M. Breal باقتراح حول مصطلح السيمانتيك إلى ساحة اللغة العلمية قائلا: "فإننا نطلق عليها اسم سيمانتيك للدلالة على علم المعاني"[5].

وما دمنا نتحدث في دراستنا عن النص القرآني فلابد لنا أن نربط الدلالة بالقرآن الكريم، فلقد أورد التنزيل المحكم صيغة دلّ بمختلف مشتقاتها في مواضع كثيرة تشترك في إبراز الإطار اللغوي لهذه الصيغة وهي تعني الإشارة إلى الشيء أو الذات سواء أكان ذلك تجريدا أم حسا ويترتب على ذلك وجود طرفين: طرف دال وطرف مدلول.

ولو أردنا أن نربط مصطلح الدلالة بالقرآن الكريم لوجدناه في الحكاية التي وردت في سورة الأعراف عن غواية الشيطان لآدم وزوجته، قال تعالى:« فدَلاّهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما» سورة الأعراف الآية 22.

وكما جاء في قاموس المعاني فدللهما يقال بـ أدلى دلوه: أرسلهما، ودلاها: أخرجها، وقيل دللهما: من الدالة وهي الجرأة، أي جرّأهما على المعصية فخرجا من الجنة، فإشارة الشيطان دال والمفهوم الذي استقر في ذهن آدم وزوجته وسلكا وفقه هو المدلول أو محتوى الإشارة، فبالرمز ومدلوله تمت العملية الإبلاغية الشيطان من جهد آدم وزوجه، من جهة ثانية[6].

فمثل هذه الآيات كثيرة في القرآن وهي تشير بشكل بارز إلى الفعل الدلالي المرتكز على وجود باث يحمل رسالة ذات دلالة، ومتقبل يتلقى الرسالة ويستوعبها وهذا هو جوهر العملية البلاغية التي تنشده اللسانيات الحديثة.

وتبرز أكثر العلاقة الرمزية بين الدال والمدلول قطبي الفعل الدلالي، في قوله تعالى من سورة الفرقان:« ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا» سورة الفرقان الآية 45.

فلولا الشمس ما عرف الظّل، فالشمس تدل على وجود الظل، فهي شبيهة بعلاقة النار بالدخان الذي يورده علما والدلالة مثالا للدلالة الطبيعية التي تربط الدال بمدلوله.

فإذا أدركنا مفهوم الدلالة ومدى حضورها في النص القرآني، كان لابد لنا أن نضع مفهوما للنص.

في مفهوم النص:

فقد جاء تعريف النص في كتاب المحيط في اللغة بأنه: "رفعك الشيء، كنص الحديث، ونصصت ناقتي: إذا رفعتها في السير والماشطة تنص العروس فتقعدها على منصة، ونصصت الشيء: حركته، ونصصت الرجل إذا استقصيت مسألته عن الشيء، ونص كل شيء منتهاه، وفي الحديث إذا بلغ النساء نص الحقائق".[7]

كما جاء في لسان العرب لابن منظور:" نص الشيء رفعه وأظهره،وفلان نص أي استقصى مسألتهعن الشيء،حتى استخرج ما عنده،ونص الحديث ينصه نصا،إذا رفعه،ونص كل شيء منتهاه"[8].

أما في لاصطلاح،تعددت مفاهيم النص بتعدد التوجهات المعرفية والنظرية المختلفة،وعليه فإن الاختلاف حول ماهية النص يكمن أساسا في اختلاف التصور والغاية من الدراسة،فحدود النص ونظريته ومفهومه يتجسد ويتبلور وفق تلك المنطلقات العديدة.

يقول لارسون: " تضفي وسائل عدة التماسك على النص، وتختلف الوسائل المستخدمة، بل وطرق استخدامها اختلافا كبيرا "[9].

إذ ليس كلما يكتب يصدق عليه نصا أدبيا، بل لابد أن يكون منسجما متماسكا.

اتجهت عناية الباحثين في مجال الدلالة وفقه اللغة نحو دراسة النص بوصفه وحدة واحدة. فدرسوا العناصر التي من شأنها أن تقوم هذه الوحدة وتجعلها أمرا ممكنا ليتسنى لهم التفريق بين ما هو نص وما هو ليس بنص.

وقد قال الكاتب محمد بن محمد الرعيني المكنى بالحطاب في تعريف النص قائلا: "ما تأويله تنزيله أي يفهم معناه بمجرد نزوله ولا يحتاج لتأويله، فلو ضربنا على سبيل المثال هي قوله تعالى في سورة البقرة: "فصيام ثلاثة أيام"، فإنه يفهم معناه بمجرد نزوله ولا يتوقف فهمه على تأويله"[10].

والذي لابد من معرفته هو أن هناك تباين واضح بين مصطلح النص في اللسانيات المعاصرة، وبين تراثنا العربي الإسلامي، فالمعاصرون يعرفونه بأنه:« مجموعة من الأحداث الكلامية ذات معنى وغرض، تبدأ وجودها من مرسل للحدث اللغوي، وتنتهي بمتلق له"[11].

فإذا تحدثنا عن النص في اللسانيات المعاصرة بوجه عام ،كان جدير بنا أن نتحدث عن لسانيات النص بوجه خاص، أو ما يعرف بعلم لغة النص والذي يعد ظهوره ونشأته إلى علوم سابقة له كلسانيات الجملة والأسلوبية، والنقطة التي تحسب على لسانيات النص كونها تعد نقطة ارتكاز لعدة علوم.

فلابد لكل بحث من ضبط المجال الذي يدور فيه، والمفاهيم العاملة التي يعتمد عليها فلسانيات النص Linguistique Textuelle ارتبطت بعديد من العلوم، وها نحن أن نذكر في هذا المقام الإمام عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم ومؤلفاته: ككتاب دلائل الإعجاز والذي يعد الجامع بين علوم كثيرة كالنحو، وعلم المعاني وعلم البيان والتفسير ودلالة الألفاظ والمعجمية والمنطق، وألف بينهما في تناغم عجيب، وكان هدفه حسب دراسات الباحثين الذين غمروا هذا الميدان بحثا هدف صريح ومباشر يدعو إلى تحقيق خدمة النص القرآني وبيان إعجازه والترابط والانسجام بين عباراته فظاهرة الانسجام عند عبد القاهر كانت جلية، وواضحة فقد كان تعبيره عنها

بالعقد الواحد وائتلاف الكلمات والجمل كحجرات ذلك العقد، وكذلك يعبر عنها أيضا بقوله: "واعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعا من الذهب أو الفضة، فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة"[12].

وهنا يمكن استخلاص مفهوم النص عند عبد القاهر الجرجاني الذي رفع ذروته إلى درجة التداخل والانصهار وهذه قد عدَّها الباحثون أقوى تعبير عن الترابط والانسجام.

مما لاشك فيه أن القرآن الكريم وعلى الرغم من اختلاف موضوعاته ومضامينه من جهة، وتنجيمه من جهة أخرى ، وهو نزوله متفرقا ولسنوات ليست بالقليلة، إلا أنه يعد وحدة واحدة منسجمة أيما انسجام. يأخذ بعضه بحجز بعض، ويؤيد بعضه بعضا. فلا ترى فيه اختلافا ولا تعارضا. وما ذلك إلا لوحدة جهة الصدور المقدسة. إذ أن صنعة الأديب تتطلب منه ذلك الفن والرصانة والتناسق، فكيف إذا كان هذا الكلام هو من عند الله تعالى، ملهم الإنسان تلك الموهبة التي إذا ما وجدت عند أحد من البشر أشير له بالبنان والإبداع، وينقل الزركشي عن القاضي أبي بكر بن الغربي القول:(ارتباط آيات القرآن بعضا ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني منتظمة المباني)[13].

وهذا التناسق والانسجام بين النصوص المباركة الشريفة على اختلاف موضوعاتها وتنوع متعلقاتها إنما يدل على أن المولى تبارك وتعالى كلامه المعجز مليء بجماليات النص الصادرة منه تعالى اهتماما جعل الرعيل الأول للأدب العربي يشهدون بسحر عباراته، وروعة جمله ،فوقفوا عاجزين أمامه . حتى صار هذا الفن هو المعجز الذي تحدى به الله تعالى البشر على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم على أن يؤتوا بمثله .

{قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً }الإسراء88.

أو بعشر سور:

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } هود13

بل بسورة واحدة :

{ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } البقرة23.

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }يونس38.

أو حديث واحد فقط:

{ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ } الطور34

وقد تكفل بدراسة هذا الإعجاز القرآني عدد كبير من العلماء وفي مختلف العصور. وألفوا فيه عشرات بل مئات الكتب والمجلدات.

كما ودل هذا التناسق والانسجام على وحدة المصدر والذي هو الله تعالى . وأكد أن هذا الكم الهائل من العبارات والجمل والأخبار لو كانت من غير عند الله لوجدوا فيه اختلافا" كبيرا. فقال جل وعلا:

{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً }النساء82.

إن الخطاب القرآني باعتباره نصا أي خطابا لغويا، يهدف إلى مخاطبة كل الناس ، وحامل الخطاب هو الرسول الكريم، وهكذا فإن مرسل الخطاب هو الله، والمرسل إليهم هم الناس جميعا ، والرسالة هي القرآن الكريم، وأخيرا فإن الأداة التي صيغ بها الخطاب هي اللغة العربية ، أما القناة التي مر عبرها الخطاب إلى العالمين فهو الرسول.

لو أردنا التعمق في النص القرآني لاقتضى منا التزود بمجموعة من الأدوات المعرفية حتى نتمكن من مقاربة النص / الخطاب القرآني من جهة الاتساق والانسجام، ومعنى ذلك أنه لابد من الاستناد إلى العلوم التي تربطنا بالقرآن الكريم، كعلوم القرآن، والتفسير، والدراسات الإعجازية، ومن الكتب النحوية والبلاغية، ومن نظرية النظم ..وغيرها.

كما أنه لابد من حصر مظاهر الانسجام والاتساق في النص القرآني من نواحي عديدة منها الصوتية والصرفية فالتركيبية.

فنجد الانسجام الصوتي يفرض تحقيق توازنات صوتية في مواقف تعبيرية معينة، مع تحقيق مبدأ اقتصاد المجهود ، والتأثير في المتلقي ببراعة وروعة الجرس الموسيقي الذي يتحقق بالأصل وما يطرأ عليه من عوارض تمشيا مع الموقف والمقام، رغبة ورهبة ، وبيانا وهداية.

كما استخدم البيان القرآني المكون الصرفي لتحقيق الاتساق والانسجام بين مكوناته، ليجعل من القرآن الكريم منظومة متكاملة، لا يمكن فهم إحدى جزئياته إلا في إطاره الكلي ، و مما تجدر الإشارة إليه وجود علاقة تكامل بين الصيغة والسياق والمقام في الدلالة على زمن الفعل. كما أن الصيغ تم اختيارها بدقة متناهية لتناسب السياق والمقام، وتحقق الإيجاز، وجمالية العرض، فضلا عن الربط المحكم بين مكونات الخطاب القرآني.

إن المدخل لتدبر القرآن الكريم هو البنية التركيبية، فالقرآن الكريم يحتمل من المعاني بقدر ما يحتمل من المباني، ولذلك اتجهت عناية المفسرين إلى تحديد الإعرابات الممكنة للآيات القرآنية، لأنهم بصنيعهم ذلك يقيدون المعاني المطلقة للقرآن الكريم بطريقة علمية وموضوعية . ويشكل المستوى التركيبي عاملا مهما من عوامل تماسك الخطاب القرآني، فالعلاقات التركيبة هي وشائج شكلية ناظمة لكل مكونات الخطاب القرآني من جهة، ومحددة معانيه من جهة أخرى، باعتبار المعنى الأساس يكمن في البنية التركيبية العميقة، التي يمكن الوصول إليها عن طريق دراسة البنية السطحية وما طرأ عليها من تحويلات، حيث الانتقال من المستوى الوصفي إلى المستوى التأويلي، بغية فهم الخطاب القرآني، واكتشاف آليات اتساقه وانسجامه. وقد استعمل المفسرون هذه التقنية منذ التفاسير الأولى لتحديد مراد الله تعالى من الخطاب القرآني من جهة، ولإدراك مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم من جهة أخرى.

وفي مقالي هذا خلصت إلى عدة نتائج وملاحظات جمعتها في نقاط أدرجتها فيمايلي:

– إن اعتبار النص عينة، يعني أنه يعكس بحدّ ذاته ملاك اللغة، أي كل ما يتعلق بها بصفتها نظام علامات لغوية تستخدم كوسيلة اتصال بين المتكلمين بها؛ فأياً كانت اللغة التي تنتمي إليها المادة اللغوية التي ندرسها، فالعينة منها، عندما تكون محل الدراسة تسمى نصاً،وهذا ما ينطبق على النصوص القرآنية بوجه أخص.

– كما يعد النص وحدة لغوية كبرى باعتباره ممثلا شرعيا للغة، وذلك بمحاولة تطبيق الروابط والأدوات لمعالجة النصوص كاملة.

– كما لابد لنا أن نبدي بعض الوضوح بالنسبة للمصطلحات التي لُمّح إليها كمصطلح الاتساق،فقد ورد في طيّات الكتب وقد ذكر ذلك الجرجاني مصطلح الاتساق صراحة وعني به النظم.

– كما تعدُّ قضايا اللغوية كالاتساق والانسجام صلب اهتمام ميدان لسانيات النص.

–كما تُحسب للاتساق نقطة كونه يحفظ للنص نصيته، فهو يبعد عن النصوص ضعف التأليف و النسج.

أخيرا فالقرآن الكريم منهج رباني متكامل، عقيدة وشريعة، وأخلاقا وسلوكا، ومنهجا وتصورا، وعلما ومعرفة، ودينا ودنيا. فهو كلام الله تعالى الذي أحاط بكل شيء علما، وهو نسيج وحده.

وذلك هو ما حاولنا رصده وتتبعه في سعي حثيث لفهم الظواهر اللغوية القرآنية فهما جيدا، مع المحافظة على انسجام العبارات واتساقها.

قائمة المراجع:

1- القرآن الكريم.
2- محمد عبد الواحد حجازي (1987): أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، دط، دت، ص5.
3- جلال الدين السيوطي، (د،ت)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، (د،ط)، دار إحياء الكتب العربية، ج1، ص201.
4- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ص394.
5- منقور عبد الجليل: علم الدلالة أصوله ومناهجه في التراث العربي، من منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 2001.
6- قاموس المعاني،الانترنت،مادة (أدلى)،http://www.almaany.com/ar/dict/ar
7- اللغة لابن عباد، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، 1414هـ
8- ابن منظور ،لسان العرب،دار صادر ،بيروت،لبنان،ط1994،3،ج7،ص42-44.
9- ملدريدل لارسون ، الترجمة القائمة على المعنى دليل التكافؤ عبر اللغات،ترجمة: حازم مالك الربيعي ومراجعة الدكتور عبد الواحد محمد، 2\258 وما بعدها.
10-قرة العين لشرح ورقات إمام الحرمين، محمد بن محمد الرعيني، الشهير بالحطاب، مطابع الرياض، 1375هـ، ج1، ص27.
11- النص والخطاب والإجراء، روبار دو بوغراند دارسلر، ترجمة إتمام حسان، ص36.
12-دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تح: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، سنة 2000، ص388.
13-بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،ط01، 1957 دار إحياء الكتب العربية، 2 \282.